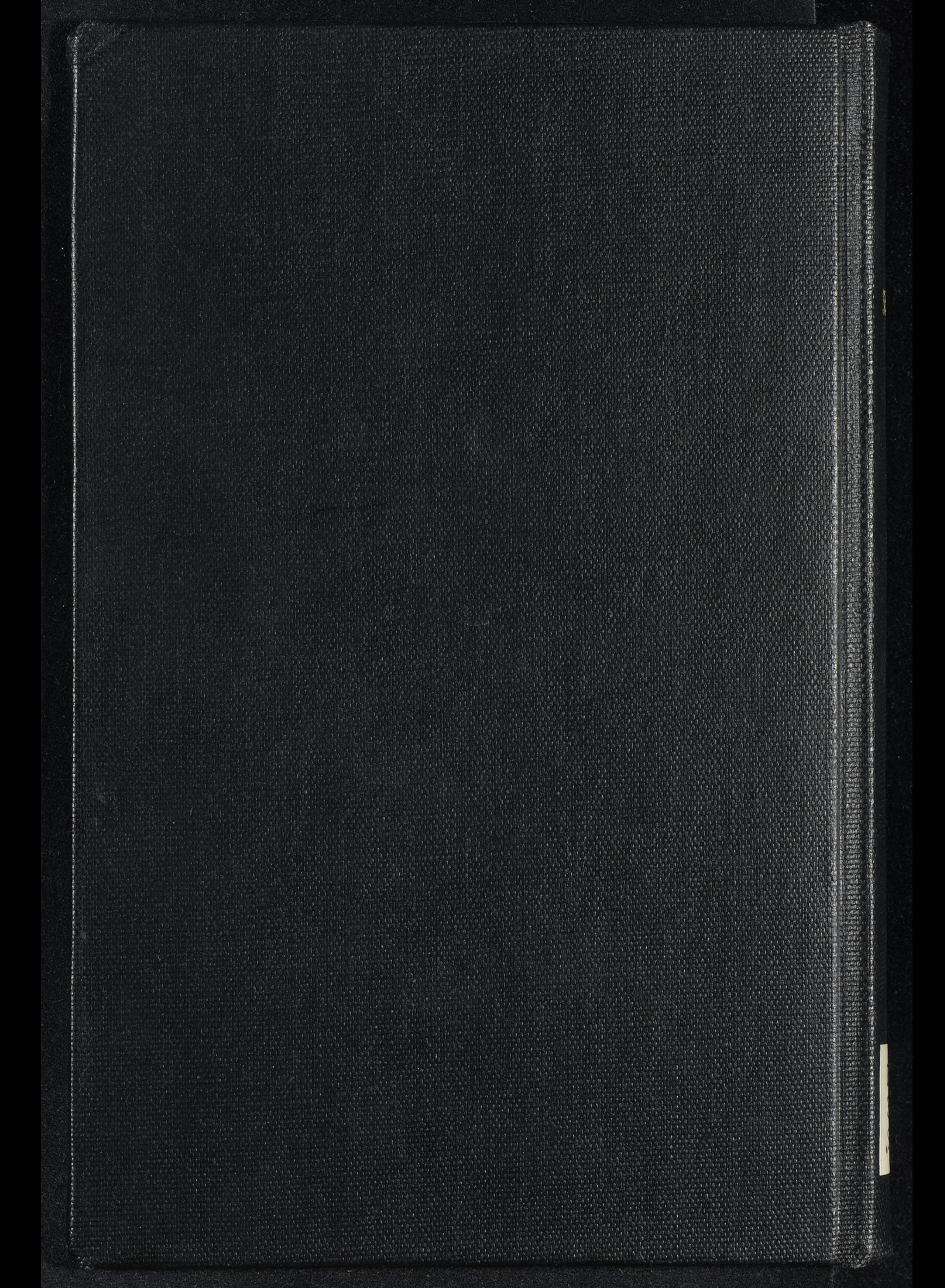
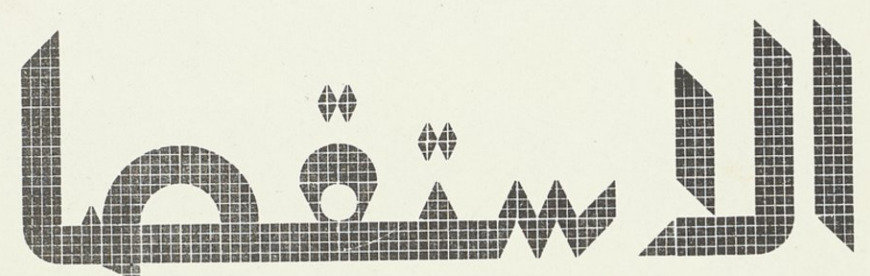


الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولتان المرابطية والموحدية

الجزء الثاني

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :
الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

مطبعة دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٤

v.2

جليلة وذخائر عظيمة ، ورتب رجالا وفرسانا فى جميع ما استولى عليه . وأرسل الى السلطان يوسف بجميع ما حصله وكتب اليه يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال فى أضيق عيش وانكده وملوك الاندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومه فكتب اليه « أن يأمرهم بالنقلة والرحيل الى أرض العدوة فمن فعل فذاك ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور منهم ، ولا تتعرض لابن عباد الا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول عليه أميرا من عسكرك » فامتثل سير بن أبى بكر أمره واستنزلهم واحدا بعد واحد حتى كان آخرهم ابن عباد فألحقه بهم ونظمه فى سلكهم على ما نذكره .

وقال ابن أبى زرع : « لما كانت سنة احدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين الى الاندلس الجواز الثانى برسم الجهاد . قال : وسبب جوازه أن الاذفونش لعنه الله لما هزم وجرح وقتلت جموعه عمد الى حصن لييط الموالى لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة ، وأمرهم أن يكونوا ينزلون من الحصن المذكور فيغيرون فى أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الاندلس ، اذ كان السبب فى جواز أمير المسلمين الى الاندلس فكانوا ينزلون من الحصن فى الخيل والرجل فيغيرون ويقتلون ويأسرون قد جعلوا ذلك وظيفة عليهم فى كل يوم . فساء ابن عباد ذلك وضاق به ذرعا . ثم عبر البحر الى العدوة مستنفرا لامير المسلمين فلقيه بالمعمورة من حلق وادى سبو – وهذه المعمورة هى المسماة اليوم بالمهدية ، من أحواز سلا – فشكا اليه حصن لبيط وما يلقاه المسلمون من أهله ، فوعده الجواز اليه ، فرجع المعتمد .

وسار يوسف فى أثره ، فركب البحر من قصر المجاز الى الخضراء ، فتلقاه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة ، فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها الى أمراء الاندلس يدعوهم الى الجهاد ، وقال لهم :

« الموعد بيننا وبينكم حصن لبيط » ، ثم تحرك يوسف من الخضراء ، وذلك في ربيع الاول من السنة المذكورة ، فنزل على حصن لبيط – وفى القاموس لبطيط كزنبيل بلد بالجزيرة الخضراء الاندلسية ، ولعله هو هذا – فلما نزله أمير المسلمين لم يأته ممن كتب اليه من أمراء الاندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية ، وابن عباد صاحب اشبيلية فنازلا معه الحصن وشرعوا فى القتال والتضييق عليه .

وكان يوسف رحمه الله يشن الغارات على بلاد الفرنج كل يوم ودام الحصار على الحصن أربعة أشهر لم ينقطع القتال فيها يوما واحدا الى أن دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز وابن عباد نزاع وشنآن ، فشكا المعتمد الى أمير المسلمين ابن عبد العزيز فقبض عليه أمير المسلمين وأسلمه الى ابن عباد فاختل أمر المحلة بسبب ذلك وفر جيش ابن عبد العزيز وقواده عنها وقطعوا الميرة عن المحلة ووقع بها الغلاء .

ولما علم الاذفونش بذلك حشد أمم النصرانية وقصد الى حماية الحصن فى أمم لا تحصى ، فلما قرب من الحصن انحرف له يوسف عنه الى ناحية لورقة ، ثم الى المرية ثم جاز الى العدوة وقد تغير على أمراء الاندلس لكونه لم يأته منهم أحد عندما دعاهم الى الجهاد ومنازلة الحصن .

ولما أفرج أمير المسلمين عن الحصن المذكور ، أقبل الاذفونش حتى نزل عليه فأخلاه مما كان فيه من آلة الحصار ومادته ، وأخرج من كان فيه من بقية النصارى المنفلتين من مخالب المنية ، وعاد الى طليطلة فاستولى ابن عباد عليه بعد خلائه وفناء جميع حماته بالقتل والجوع سوى تلك الصبابة المنفلتة .

وكان فيه عندما نازله أمير المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل دون العيال والذرية ، فأتى عليهم القتل والجوع حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة وهم المنفلتون منه عند اخلائه .

ثم لما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين الى الاندلس الجواز الثالث برسم الجهاد ؛ فسار حتى نزل على طليطلة وحاصر

بها الاذفونش وشن الغارات بأطرافها فاكتسحها وانتسف ثمارها وزروعها وخرب عمرانها وقتل وسبى ولم يأته من ملوك الاندلس أحد ، ولا عرج عليه منهم معرج فغاظه ذلك !

ولما قفل من غزو طليطلة عمد الى غرناطة فنازلها . وكان صاحبها عبد الله بن بلكين ابن باديس بن حبوس قد صالح الاذفونش وظاهره على أمير المسلمين ، وبعث اليه بمال واشتغل بتحصين بلده . وفى ذلك يقول بعض شعراء عصره :

يبنى على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير
دعوه يبنى ، فسوف يدرى اذا أتت قدرة القدير

ولما انتهى أمير المسلمين الى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلكين وأغلق أبوابها دونه فحاصره أمير المسلمين نحو شهرين . ولما اشتد عليه الحصار أرسل يطلب الامان فأمنه أمير المسلمين وتسلم منه البلاد فملكها ، وبعث بعبد الله وأخيه تميم بن بلكين صاحب مالقة الى مراكش مع حريمهما وأولادهما فأقاما بها وأجرى عليهما الانفاق الى أن ماتا بها .

ولما خلع أمير المسلمين بنى باديس وملك غرناطة ومالقة وما أضيف اليهما خاف منه المعتمد ابن عباد وانقبض عنه . ويقال : أن ابن عباد طمع فى غرناطة وان أمير المسلمين يعطيه اياها فعرض له بذلك فأعرض عنه أمير المسلمين فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه ، ثم سعى بينهما الوشاة فتغير عليه أمير المسلمين وعبر الى العدوة فى رمضان سنة ثلاث وثمانين المذكورة .

ولما انتهى الى مراكش ولى على الاندلس قائده سير بن أبى بكر اللمتونى وفوض اليه جميع أمورها كلها ولم يأمره فى ابن عباد بشىء فسار سير بن أبى بكر نحو اشبيلية، وهو يظن أن ابن عباد اذا سمع به يخرج اليه ويتلقاه على بعد ويحمل اليه الضيافات على العادة فلم يفعل ، وتحصن منه ولم يلتفت اليه ! فراسله سير ابن أبى بكر أن يسلم اليه البلاد ويدخل

فى طاعة أمير المسلمين ، فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير الى حصاره وقتاله . وبعث بعض قواده الى قرطبة ليحاصرها وبها يومئذ المأمون بن المعتمد ابن عباد ، فنازلها فى عساكر المرابطين حتى فتحها يوم الاربعاء ثالث صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وقتل صاحبها المأمون بن المعتمد ثم فتح بياسة وأبدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة ، ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد الا وقد ملكه المرابطون ما عدا قرمونة واشبيلية . ثم ارتحل سير ابن أبى بكر الى قرمونة فنازلها حتى دخلها عنوة زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الاول من السنة المذكورة . فاشتد الامر على ابن عباد وطال عليه الحصار فبعث الى الاذفونش لعنه الله يستغيث به على لمتونة ويعده باعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد ان هو كشف عنه ما هو فيه من الحصار ! فبعث اليه الاذفونش قائده القومس فى جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل .

فلما علم سير بقدوم الفرنج اليه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة ، وقدم عليهم ابراهيم بن اسحق اللمتونى وبعثه للقاء الفرنج . فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين ، ومنحهم الله النصر فهزموا الفرنج وقتلوهم حتى لم يفلت منهم الا القليل .

ثم شد سير ابن أبى بكر فى الحصار والتضييق على اشبيلية حتى افتتحها عنوة وقبض على المعتمد وجماعة من أهل بيته ! فقيدهم وحملهم فى السفين بنهر اشبيلية وبعث بهم الى أمير المسلمين بمراكش . فأمر أمير المسلمين بارسال المعتمد الى مدينة اغمات فسجن بها واستمر فى السجن الى أن مات به لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان دخول سير بن أبى بكر مدينة اشبيلية يوم الاحد الثانى والعشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

ثم ملك المرابطون بعد ذلك ما بقى من بلاد الاندلس الى أن خلصت لهم ولم يبق لملوك الطوائف بها ذكر . وهذه الاخبار نقلناها عن ابن أبى زرع ممزوجة باليسير من كلام غيره واعتمدنا كلامه لانه موضوع بالقصد الاول لاخبار المغرب فيكون أعنى به من غيره .

وفى تاريخ ابن خلدون بعض مخالفة لما مر . قال : « أجاز يوسف بن تاشفين البحر الى الاندلس الجواز الثانى سنة ست وثمانين وأربعمائة وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم ، فوجد عليهم . وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة » وقال أيضا : « ان الفقهاء بالاندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم ، فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف فأجابوه بالامتثال . حتى اذا رجع عن بلادهم رجعوا الى حالهم . فلما أجاز ثانية انقبضوا عنه الا ابن عباد فانه بادر الى لقائه وأغراه بالكثير منهم ! فقبض على ابن رشيق البناء وأمكن ابن عباد منه للعداوة التى بينهما . وبعث جيشا الى المرية ، ففر عنها صاحبها ابن صمادح ونزل بجاية من أرض افريقية . وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته . فساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من أيديهم ، وسارت اليه بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالى والطرطوشى وغيرهما .

فعمد الى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلكين وأخاه تميما عن مالقة ، بعد أن كان منهما مداخلة للطاغية فى عداوة يوسف بن تاشفين ، وبعث بهما الى المغرب . فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه ، وفشت السعايات بينهما . ونهض أمير المسلمين الى سبتة فاستقر بها وعقد للامير سير ابن أبى بكر على الاندلس وأجازه . فانتهى اليها ، وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فأحفظه ذلك وطالبه بالطاعة لامير المسلمين والنزول عن الامر ، ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله . ثم صمد الى اشبيلية

فحاصره بها واستنجد الطاغية . فعمد الى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيئا . وكان دفاع لمتونة مما فت فى عضده . واقتحم المرابطون اشبيلية عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وتقبض سير على المعتمد وقاده أسيرا الى مراكش ، فلم يزل فى اعتقال يوسف بن تاشفين الى أن هلك فى محبسه من اغمات سنة تسعين وأربعمائة .

ثم عمد الى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الافطس فقتله وابنيه يوم الاضحى سنة تسع وثمانين وأربعمائة بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكوه مدينة بطليوس .

ورثاهم الاديب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بقصيدته المشهورة التى يقول فى أولها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهى قصيدة غريبة فى منوالها وموضوعها ، عدد فيها أهل النكبات ، ومن عثر به الزمان بما يبكى منه الجماد ، وتستشرف لسماعه الانجاد والوهاد .

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث الى الاندلس سنة تسعين وأربعمائة ، وزحف اليه الطاغية . فبعث أمير المسلمين عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج اللمتونى ، فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين

ثم أجاز الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين ، وانضم اليه محمد بن الحاج وسير بن أبى بكر ، فافتتحوا عامة الاندلس من أيدى ملوك الطوائف ، ولم يبق منها الا سرقسطة فى يد المستعين بن هود معتصما بالنصارى . وأغزى الامير مزدلى صاحب بلنسية الى بلاد برشلونة فأثخن فيها ، وبلغ الى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع .

وانتظمت بلاد الاندلس فى ملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن . واستولى أمير المسلمين على العدوتين معا واتصلت هزائم المرابطين على الفرنج مرارا والله غالب على أمره .» فهذا

كلام ابن خلدون فى سياقه هذه الاخبار .

واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وغض عليه اما فى كونه كان بربريا من أهل الصحراء بعيدا عن مناحى الملك والادب ورقة الحاشية ، وما فى كونه تحامل على ملوك الاندلس حتى فعل بهم ما فعل ، وذلك حيث عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم .

واعلم أن هذا الكلام جدير بالرد ، وأصله من بعض أدباء الاندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون فى نعمتهم ، فحين فعل مير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان ، والا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت ، ومن ركوب الجادة وتحرى طريق الحق على الوصف الذى سمعت !

وهذا ابن خلدون امام الفن ومتحرى الصدق ، قد نقل أن ملوك الاندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الاموال فى مظاهرته اياهم على أمير المسلمين ، ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الائمة الاعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هذا واعرفه . والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنه وكرمه .

بقية أخبار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم

قال ابن خلكان : « كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازما ، سائسا للامور ، ضابطا لمصالح مملكته ، مؤثرا لاهل العلم والدين ، كثير المشورة لهم» قال: «وبلغنى أن الامام حجة الاسلام أبا حامد الغزالى رحمه الله لما